



المسار الاجتماعي والتعليمي للعلامة عبد الرحمن بن خلدون  
(808هـ/1405م)

الأستاذ: نش عزوز/جامعة غرداية

الأستاذة: قاتل الهام/جامعة المسيلة

ملخص:

يعتبر عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ / 1405م) شخصية فذة في الفكر الإسلامي بوجه خاص والفكر الإنساني بوجه عام، بهر الشرق والغرب بعبقريته ودار النقاش حول أفكاره وحياته فشغل الآراء والعقول، ويمثل المسار التعليمي والاجتماعي لابن خلدون مفتاحا للعديد من القضايا التي مازالت عالقة في ذهن الباحثين، ذلك أنه لا يمكن فهمه إلا من خلال معرفة هذا المسار، فقد عاش حياة صاحبة جمعت بين العلم والسياسة بين الطموح والخيبة، حياة مليئة بالعباء والتألق، حياة أهلتها أن يحتل موقعا فريدا ومتميزا في تراث الفكر العالمي.

Résumé

*Abde-Rahman Ibn Khaldoun est une personnalité exceptionnelle particulièrement en pensée islamique et généralement en pensée humaine. Il a étonné l'orient et l'occident par son génie et a provoqué une discussion sur ses idées et sa vie en colonisant les opinions et les cevelles. Son parcours éducatif et social constitue un clé pour nombreux sujets en voie de recherche. Ce clé ne peut pas être déchiffré que par la recherche dans ce parcours. Or, il a connu une vie bruyante qui associe la science avec la politique et l'ambition avec l'échec. Cette vie pleine de l'offre et du splendeur lui a confié d'avoir une position unique et distincte dans le patrimoine de la pensée internationale.*

\*\*\* \*\*

1- نسب عبد الرحمان ابن خلدون:



ينتسب عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/ 1405م) إلى أسرة يمنية حضرية نسبها في الإسلام يعود إلى وائل بن حجر، دخل أفراد هذه الأسرة الأندلس مع الفاتحين العرب في أواخر القرن الثالث هجري الموافق ل القرن التاسع ميلادي عن طريق أحد أفرادها وهو خالد بن عثمان الذي اشتهر فيما بعد باسم خلدون الذي استقر في اشبيلية.<sup>(1)</sup>

والجدير بالذكر هو أن هذه الأسرة قد تقلدت مناصب جد عالية سواء على الصعيد السياسي أو العسكري ذلك أنهم احتلوا مواقع مرموقة في اشبيلية. فبسطوا نفوذهم وهيمنوا على مجلس المدينة. برز منهم الكثير من رجال الدولة والعديد من الشعراء الموهوبين مما شكل لهم شهرة واسعة في مختلف أرجاء الأندلس، حيث انخرط البعض منهم في فرقة الجنود اليمنيين و اشترك زعيمهم كريت وأخوه خالد في الثورة التي نشبت باشبيلية ضد الأمير عبد الله المرواني الأموي، وبعدها استقل كريت بأمر اشبيلية مدة من الزمن، هذا فضلا على اشتراك أسرة خلدون في معركة الزلاقة<sup>(2)</sup> إلى جانب يوسف بن تاشفين ضد النصارى، حيث تمكنوا من استرجاع الرياسة والجاه عن طريق الاتصال بالولاة الجدد به، و في سنة 620هـ/1223م نزحت أسرة ابن خلدون إلى إفريقية فأكرم الحفصيون وفادتهم و عطفوا عليهم، و قلدوهم مناصبا فاشتغل جد ابن خلدون الأول محمد حاجبا للأمير أبو فارس حاكم بجاية.<sup>(3)</sup>

وتولى الجد الثاني أبو بكر محمد شؤون دولة الحفصيين بتونس، أما والده محمد فقد أثر العزوف عن السياسة و التفرغ للحياة العلمية، فاهتم بالفقه المالكي ودرس الشعر، واللغة واشتغل بتدريس الفقه المالكي و المنطق والفلسفة. و المثير للإعجاب أن بيته هو أحد الأماكن التي يجتمع فيها علماء تونس و أدباؤها. والظاهر أن والد ابن خلدون ليس الوحيد من أسرته الذي اهتم بالجانب العلمي، فقد نبغ من قبله في الأندلس و المغرب عدد كبير من أفرادها، و نذكر من هؤلاء: عمر بن خلدون الذي كانت له قدم راسخة في العلوم الرياضية و الفلك.

ولابد من الإشارة إلى أن والد ابن خلدون قد توفي في الطاعون الذي حل سنة 749هـ/1349م خلفا عددا من الأولاد هم: عبد الرحمان، و كان آنذاك في

الثامنة عشر من عمره وإخوته (عمر، موسى، يحيى و محمد وهو أكبرهم)، و برز من بينهم عبد الرحمان وشقيقه يحيى.<sup>(4)</sup>

## 2- نشأته وتعليمه:

ولد عبد الرحمن ابن خلدون بتونس في رمضان سنة 732هـ/1332م، كني بأبي زيد نسبة إلى ابنه الأكبر زيد، ولقب بولي الدين بسبب ولايته للقضاء المالكي بالقاهرة، واشتهر بابن خلدون نسبة إلى جده خالد، ووصف بالمالكي نسبة إلى مذهبه الفقهي خصوصا بعد توليه منصب قاضي القضاء المالكية في مصر، و وصفوه بالحضرمي نسبة إلى أصله.<sup>(5)</sup>

ناهيك عن ألقاب أخرى (كالوزير، أو الرئيس، الفقيه، إمام الأئمة، جمال الإسلام والمسلمين)<sup>(6)</sup>، لقد كان ابن خلدون "رجلا فاضلا حسن الخلق جم الفضائل، باهر الخصل رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمة، قوي الجأش، طامحا لقن الرياسة، خاطبا للحظ، متقدما في الفنون العقلية و النقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، جوادا، حسن العشرة، مبذول المشاركة، مفخرا من مفاخر التخوم المغربية...."<sup>(7)</sup> وفيه يقول أبو القاسم محمد الحفناوي: "خلدون بفتح الخاء المعجبة وآخره نون، حفظ القرآن الكريم و الشاطبتين و مختصر ابن الحاجب الفرعي، و تفقه بأبي عبد الله الجياني، قرأ عليه التهذيب و عليه تفقه، و حفظ المعلقات و الحماسة و شعر ابن حبيب".<sup>(8)</sup>

و للإشارة فإن ابن خلدون قد تزوج من فتاة ثرية ابنة قائد جيش الحفصيين المعروف بمحمد ابن الحكم الذي ينتمي إلى واحدة من أشهر الأسر الإفريقية و ذلك حوالي 754هـ/1353م.<sup>(9)</sup>

تميز عبد الرحمن بتوقد ذكائه، و سمو فكره، رجاحتة نادرة موسوع المعارف و طريف الآراء و المواقف نفيس المؤلفات، يوجد في هذا العالم رجال لا وازع لهم، و رجال بلاط مهرة دهات، لكن يندر وجود ذوي النباهة الطريفة الخصبة، و ابن خلدون أحد هؤلاء فإليه يرجع الفضل أن الآداب العربية تستطيع أن تفخر بأنها كانت الأولى في وضع الفلسفة الاجتماعية في قالب علمي.<sup>(10)</sup>

درس ابن خلدون العلوم الشرعية من حديث، و تفسير، و فقهه على المذهب المالكي، و أصول و توحيد، بالإضافة إلى العلوم اللسانية، انتقل بعدها لدراسة المنطق والفلسفة و العلوم الرياضية و الطبيعية، و حضي بإعجاب أساتذته في جميع دراساته و نال إجازاتهم و هذا ما أهله لأن يصبح فقيها ومؤرخا وأديبا وشاعرا، وفيلسوبا وحاجبا ودبلوماسيا.<sup>(11)</sup>

صنف تاريخه الكبير في سبع مجلدات و كان يسلك في إقراءه مسلك الأقدمين كالغزالي و الفخري مع إنكار طريقة طلبة العجم، و يقول إن اختصار الكتب في كل فن و التقيد بالألفاظ على طريقة العضد، و غيره من محادثات المتأخرين و العلم وراء ذلك.<sup>(12)</sup>

"شرح البردة شرحا بديعا دل به على إنفساح ذرعه و تَقْنُ إدراكه، و غزارة حفظه و لخص كثيرا من كتب ابن رشد و علق للسلطان أيام نظره في العقليات<sup>(13)</sup> تقيدا مفيدا في المنطق و لخص محصل الإمام فخر الدين الرازي، و أما نثره و سلطانياته السجعية فخلج بلاغة، و رياض فنون، و معادن إبداع، يفرغ عنها براعة الجريء، شبيهه البداءات بالخواتم في نداوة الحروف و قرب العهد بحرية المداد، و نفوذ أمر القريحة، و استرسال الطبع و أما نظمه فنهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر، و نقده باعتبار أساليبه، فانثال عليه جوه و هان عليه صعبه فأتى منه بكل غريبة...."<sup>(14)</sup>

2- مشيخته:

لعله من الضروري في هذا المقام التنويه إلى الازدواجية الحاصلة في النص الخلدوني بين النقل والعقل، ذلك أنه جرت العادة في الدراسات الخلدونية على تصنيف ابن خلدون إما في دائرة المفكرين العقلانيين أو المفكرين السلفيين، وهذا ما أوجب صعوبة في فهم نصوصه بشكل جيد، والظاهر أن نوع الدراسات التي تلقاها ابن خلدون والأساتذة الذين احتك بهم وأخذ عنهم، و المجالس العلمية التي انتظم فيها، كل ذلك جعل فكره فكريا موسوعيا، لا فكريا متخصصا، فقد اطلع خلال مراحل دراسته على مختلف جوانب الفكر الإسلامي بشقيه النقلي والعقلي، و فهم مختلف قضاياها، و تمكن من منطق الفلاسفة، و منطق الأصوليين، ما أكسبه

تفكيراً منطقياً صارماً، يجمع بين قوة الاستدلال، والقدرة على جمع شتات الواقع الاجتماعي في استقراء علمي سليم<sup>(15)</sup>.

نشأ ابن خلدون في بيئة تزخر بالعلم والعلماء، و استمع إلى دروس مشاهير أساتذة تونس، من اللغويين و علماء الشريعة، و علماء الدين، و قد ساعدته ظروفه على توسيع دائرة شيوخه.

كما أبدى مواهب رائعة ميزته على أقرانه، و قد عني ابن خلدون بذكر أسماء معلميه وأساتذته، في مختلف هذه البحوث، و ترجم لهم و وصف مناقبهم ومكانتهم في علومهم ومؤلفاتهم

فلقد ساهمت نخبة من ألمع علماء العصر في تكوين فكره، فتتلمذ على يد علماء مهتمين بالقراءات، وآخرين مهتمين بالحديث، وآخرين بالأدب، وآخرين بالمنطق والعلوم العقلية. وفيما يلي سأحاول الإشارة إلى أهم العلماء الذين تتلمذ عليهم ابن خلدون.

#### أ- في العلوم النقلية:

##### ● في القراءات:

- أبو عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري الأندلسي المقري.
- أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب<sup>(16)</sup>.

##### ● في الحديث:

- الشيخ أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البليقي شيخ المحدثين والفقهاء والخطباء بالأندلس.
- أمام المحدثين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي.
- أبو محمد عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم الحضرمي<sup>(17)</sup>.

##### ● في الفقه:

- قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري.
- أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي.

- أبو عبد الله بن عبد الله الجياني.
- أبو القاسم محمد القيصر<sup>(18)</sup>.

### ● في اللغة العربية:

- أبو عبد الله بن العربي الحصائري.
- أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي.
- أبو العباس أحمد بن القصار.
- أبو عبد الله محمد بن بحر<sup>(19)</sup>.

### ب- في العلوم العقلية:

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي<sup>(20)</sup>.
- أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي.
- أبو عبد الله محمد بن عبد النور.
- أبو عبد الله محمد بن النجار<sup>(21)</sup>.

وبعد استعراض قائمة مشيخة بن خلدون، ونوعية العلوم التي تلقاها، يمكن القول إن النص الخلدوني عبارة عن معادلة تفاعلت فيها العلوم النقلية والعقلية معاً، فقد تمكن من استيعاب تفاصيل هذه العلوم كلها، واستخلص نقاط القوة والضعف في كل علم، واحترس من المطبات التي يمكن أن يقع فيها في حالة ما إذا انساق وراء اتجاه معين، فقد حاول التمييز فيما ينسب للعقل وما ينسب للنقل.

كما تعددت الكتب التي درسها ابن خلدون من الكتب النادرة و القيمة في عصره<sup>(22)</sup>، وقد ذكرها في كتابه التعريف و منها : (مختصر ابن الحاجب) الذي درسه في تونس، و هو من كتب الفقه المالكي مختص في أصول الفقه المالكي، مؤلفه مالكي المذهب، قام بشرح مبادئ التشريع في المذاهب كلها، وكتاب الأغاني الشهير و كتاب (التقصي لأحاديث الموطأ) و كتاب (التسهيل لابن مالك) وكتاب (الأشعار الستة) و (الحماسة للأعلم)، و كتاب (التهذيب) لأبي سعيد البرادعي إلى غير ذلك من كتب عديدة، بالإضافة إلى القرآن الكريم فالخلفية التي انطلق منها هي إسلامية ولاسيما وأنه أحد تلاميذ مدرسة القرآن الكريم، كما لا يقل أثر الحديث

النبوي الشريف فقد تمكن في علوم الحديث بمختلف أنواعها فكان واسع الإطلاع خاصة على صحيح مسلم الذي حضي بعناية كبيرة في بلاد المغرب، أما إذا نظرنا في علم أصول الفقه سنجد أنه أحد الأصوليين الذين تبنا القياس الفقهي.<sup>(23)</sup>

### 3- انقطاعه عن التلمذة وأسبابه:

انكب ابن خلدون منذ صغره على الدراسة و التحصيل العلمي، و ذلك على يد جمهرة كبيرة من العلماء و الشيوخ الأجلاء فحصل على علوم و معارف كثيرة واسعة من مصادر مختلفة و متنوعة، لكن عند بلوغه الثامنة عشر من عمره حدث حادثان خطيران حالا دون متابعة دارسته، كما كان لهما أثر بليغ في تغيير مجرى حياته وهما:

- حادث الطاعون<sup>(24)</sup> (749هـ/1349م)، الذي أهلك أبويه وجميع من كان يأخذ عنهم العلم من شيوخه، و قد تحسر ابن خلدون كثيرا على ما فقده في هذا الحادث المؤلم.

- أما الحادث الآخر فهو هجرة معظم العلماء و الأدباء الذين أفلتوا من الطاعون من تونس إلى المغرب الأقصى مع سلطان دولة بني مرين أبي الحسن.

- فظل ابن خلدون بعد هذا يتردد على الأبلي بانتظام لتلقي الدروس، و بعد رحيل الأبلي التحق ابن خلدون تحت إلهام أخيه الأكبر محمد بخدمة الدولة، فضلا على أنه حمل على عاتقه مهمة العمل من أجل كسب القوت، و ذلك من أجل المحافظة على المكانة الهامة التي كانت أسرته تشغلها دائما في البلاط، بالإضافة إلى سبب آخر تمثل في حبه الشديد و الذي لم يخمد أبدا للمغامرات و التنقل و الرغبة في خوض غمار السياسة.<sup>(25)</sup>

و نتيجة لهذه الأسباب أصبح من الصعب على ابن خلدون متابعة دارسته، فقد أصبحت الوسائل غير ميسرة له بتونس لمتابعة دارسته، و التفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل و كما كان في نيته أن يفعل، فمجرى حياته تغير، و أخذ يتطلع إلى



تولي الوظائف العامة، و الاشتراك في شؤون السياسة و السير في الطريق نفسه الذي سار فيه جداه الأول والثاني، وكثيرا من قدامى أسرته.

5- رحلته العلمية:

بالرغم من أن الظروف حالت دون أن يواصل ابن خلدون دراسته، إلا أنه لم يبأس فكان دائم البحث عن الفرص من أجل القراءة و الإطلاع و تلقي العلم و تدريسه، وهو بذلك يرضي أكبر رغبة كانت كامنة في نفسه و هي رغبة حقيقة امتازت بها شخصيته.

أ- ببلاد المغرب الإسلامي:

وبما أن الأوضاع في تونس لم تعد يسمح له بمتابعة تعليمه فقد قرر الرحيل و التجول في دويلات المغرب الإسلامي، فسافر إلى فاس سنة (755هـ/1354م)، و احتك هناك بسلطانها أبو عنان<sup>(26)</sup> (ت759هـ)، و هذا ما سمح له بلقاء المشيخة من أهل المغرب و أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، فأمضى ابن خلدون في فاس ثمانية أعوام من (755هـ/1354م) إلى غاية (763هـ/1362م) حرص خلالها على مخالطة رجال الفكر وممارسة الخطابة و الشعور إلى جانب السياسة، و من بين العلماء الذين احتك بهم ابن خلدون في فاس نذكر: محمد بن صفار المراكشي إمام القراءات و محمد المغربي التلمساني قاضي الجماعة بفاس، و أبو عبد الله الشريف التلمساني و القاضي محمد بن يحيى البرجي الأندلسي (ت786هـ) و محمد بن عبد الرزاق، و قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله المقرئ (ت759هـ) و آخرين كثير.

لم ينصرف ابن خلدون في هذه الأثناء من الدراسة و التحصيل و ذلك بحكم التنافس الشديد المحيط به، ولما حظي به الفقهاء والعلماء من اهتمام، وكذلك من أجل الاستئثار بمناصب الدولة و نتيجة لهذا اتصل بكبار فقهاء عصره، و أخذ عن عدد كبير من علماء المغرب.<sup>(27)</sup>

كما سافر ابن خلدون إلى بجاية سنة 766هـ/1364م، و اشتغل هناك بالخطابة و التدريس في جامع القصبية، و يحسن الذكر أنه كان يمارس وظيفته السياسية صباحا، و يتفرغ للعلم مساء، و بعد مدة من الزمن سافر إلى أحياء أولاد عريف سنة 776هـ/1374م.



واعتكف في قلعة بن سلامة<sup>(28)</sup> مؤثرا العزلة للضرورة النفسية و الروحية، و ذلك كي يتسنى له استيعاب الأحداث، و أقام في القلعة مدة أربعة أعوام تخلى فيها عن الشواغل كلها من اجل الدرس و التأليف، و حصيلة هذا الاعتكاف هو تأليفه لكتابه الضخم (العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر).<sup>(29)</sup>

ب- الرحلة إلى مصر:

ومن أهم المحطات في رحلة ابن خلدون العلمية هي رحلته إلى مصر عام 784هـ/1382م حيث وصل إلى الإسكندرية يوم الفطر و أقام بها شهرا من اجل أن يحضر نفسه للحج لكن ذلك لم يقدر له، فانتقل إلى القاهرة أول ذي القعدة و قد انهر بها ابن خلدون انهارا كبيرا و فيما يقول: "رأيت حضرة الدنيا و بستان العالم و محشر الأمم، و مدرج الدر من بشر، و إيوان الإسلام و كرسي الملك، تلوح القصور و الاواوين في جوه، و تزهو الخوانق و المدارس بأفاقه و تضيء البدور و الكواكب من علماءه قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة... إلخ".<sup>(30)</sup>

و الملفت للانتباه أن شهرة ابن خلدون سبقتة إلى مصر، و غيرها من الأقطار الإسلامية غربا و شرقا، فلما حل بالقاهرة<sup>(31)</sup> أقبل عليه طلاب العلم إقبالا شديدا حيث استقبل كرجل شريعة، مؤرخا ذائع الصيت فبمجرد وصوله إلى القاهرة توجه إليه طلاب مدرسة الأزهر يطلبون منه إلقاء سلسلة من الدروس عليهم فدرس مسائل الفقه المالكي، كما شرح نظريته عن المجتمع و بذلك تمكن من إحراز قدر من النجاح<sup>(32)</sup>، كانت القاهرة يوم وصلها ابن خلدون مهد التفكير الإسلامي في المشرق و المغرب كما كان لسلطنتها المماليك شهرة واسعة في رعاية العلوم و الفنون، و لهذا فلا عجب أن أمل ابن خلدون أن ينال في مصر الرعاية و المكانة ما يتناسب مع مكانته العظيمة بين علماء عصره.

بمجرد وصول ابن خلدون إلى القاهرة عمل على الاتصال و التقرب من سلطانها الظاهر برقوق، و بذلك تمكن ابن خلدون من أن ينال حظوة فعينه الظاهر برقوق مدرسا بمدرسة القمحية<sup>(33)</sup> التي تعد ثاني المدارس التي أنشأت بمصر، إلى أنه لم يكد يستقر في هذه المدرسة حتى أضيف إلى منصبه هذا منصب قاضي القضاة<sup>(34)</sup> في 19 جمادي الثانية 786هـ/1384م، بحيث يصف ابن خلدون هذا



المنصب بأنه أرقى مناصب الدولة في مصر وللإشارة فإن القضاء في مصر في ذلك الوقت كان يسوده فساد واضطراب ونتيجة لهذا عمل ابن خلدون جاهدا على تحقيق العدالة حريصا على المساواة بين الناس أمام القانون عازفا عن طرائق الحيل والالتواء والمحاباة وهذا ما سبب له سخطا من كل ناحية، ضف إلى ذلك كونه مغربيا وأن منصب قاضي القضاة في مصر من أهم مناصب الدولة ومطمح أنظار الفقهاء والعلماء المصريين ناهيك عن اعتزازه بنفسه كفاية، هذا الاعتزاز الذي أحيانا ما يفسر بأنه تكبر ونتيجة لاجتماع كل هذه الأسباب اشتد السعي في حقه وكثرة بشأنه الوشايات لدى السلطة فأتهم بتهمة كاذبة، ومن ذلك أنهم نسبوا إليه الجهل بأمور القضاء.

وبعد فاجعة أصابت<sup>(35)</sup> ابن خلدون طلب إعفائه من منصبه وتخلت سبيله من هذه العهدة التي لم يطق حملها فوافق له السلطان على ذلك ورد منصب قاضي القضاة إلى صاحبه الأول عبد الرحمان جمال الدين بن سليمان بن خير المالكي (ت791هـ) ليعتكف ابن خلدون على تدريس العلم وقراءة الكتب، ولم تكن إقالته من منصب قاضي القضاة إذانا بزوال نفوذه إذ عينه السلطان برقوق أستاذ للفقهاء المالكي في المدرسة الظاهرية البرقوقية<sup>(36)</sup> في نفس السنة التي افتتحت فيها، وقد ألقى ابن خلدون في مفتح تدريسه بها خطبة طويلة لكنه ما لبث أن عزل بطلب من مدير المدرسة لوشاية ضده، وفي سنة (789هـ/1387م) اعترم على أداء فريضة الحج واستأذن من السلطان في ذلك فأذن له بذلك، أتاح موسم الحج واجتماع الحجيج في أن يلقي بعض الأندلسيين فيأنس بهم ويراجع بلقائهم بعض أيامه الغابرة ويتلقى منهم بعض الرسائل التي حملوها إليه من بعض أخصائه بالأندلس فتثير في نفسه ألوانا من العواطف والذكريات، وكان من بينهم أبو القاسم بن محمد أبي إسحاق إبراهيم الساحلي.<sup>(37)</sup>

و الظاهر أن المناصب العلمية كانت تلاحق ابن خلدون ففي محرم (791هـ/1389م) ولاة السلطان أستاذا بمدرسة سرغتمش<sup>(38)</sup> ليدرس الحديث فيها، وللذكر فإن ابن خلدون قد اتخذ من كتاب الموطأ منهجا لدراساته، ويبدو أن ابن خلدون قد أعجب بمنصبه الجديد إعجابا شديدا وذلك لتوافد طلاب العلم عليه توافدا كبيرا، وكنتيجة حتمية لتفانيه في العمل أضاف السلطان إلى

وظيفته وظيفه أخرى فعينه شيخا لخنقاه ببيرس<sup>(39)</sup> في 24 ربيع الثاني (791هـ/1389م).

والجدير بالذكر أنه في النصف الثاني من (801هـ/1399م) قد عين عبد الرحمن مرة ثانية في منصب قاضي قضاة المالكية بعد أن أقصي منه حوالي أربعة عشر عاما، وفي هذه السنة توفي الظاهر برقوق وخلفه ابنه الظاهر فرج الذي أبقى ابن خلدون في منصبه، إلا أنه سرعان ما استأذن السلطان في السفر إلى فلسطين لزيارة بيت القدس ومشاهدة آثار هذه البلاد فأذن له وسافر إليها وزار جميع معالمها ما عدا كنيسة القيامة التي لم تسترح نفسه لدخولها، بعد هذه الرحلة عاد ابن خلدون إلى منصبه، غير أنه سرعان ما عزل منه في سنة (803هـ/1401م) ويذكر ابن خلدون سبب عزله وهو فساد الجهاز الحكومي في مصر في ذلك العهد خاصة بعد تحريض الفقيه المالكي نور الدين بن الخلال الذي كان ينوب على ابن خلدون في منصب القضاء ليعين بدلا منه.

بعد هذا اشتغل ابن خلدون بالتدريس والتأليف ثم سافر إلى الشام في مهمة سياسية له<sup>(40)</sup>، وبعد عودته من الشام واستقراره بمصر عمل جاهدا من أجل استرداد منصب القضاء ومما يلاحظ أنه كان دائما يسعى للاحتفاظ بكرسي التدريس في مدرسة أو اثنتين بحكم أن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ خصوصا في ظل ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة، فكان بحاجة إلى هذا المنصب وذلك النفوذ، وبعد عودته إلى مصر أصدر السلطان أمرا بعزل الأقفهسي<sup>(41)</sup> من منصب قاضي قضاة المالكية وتولية ابن خلدون مكانه ولبث ابن خلدون في منصبه هذا حوالي عام ثم عزل عنه للمرة الثالثة في رجب (804هـ/1402م)، وتولى مكانه جمال الدين البساطي، وعزله هذا هو نتيجة للدسائس التي حيكت ضده.

ويبدو أن المعركة كانت أكثر وضوحا وصرامة وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه كثيرا حيث أنه طلب بعد عزله هذا من طرف الحاجب الكبير الذي وجه إليه الكثير من التهم أكثرها لا حقيقة لها، وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه وتحولت إلى نضال عنيف سريع الأثر وذلك من أجل التداول على المنصب. والظاهر أن ابن خلدون بدوره لم يدخر جهدا في مواجهة أعدائه



فاعتمد في مقاومتهم على عوامل ليست بأقل مما اعتمد عليه غيره، ليعين للمرة الرابعة في منصب القضاء، واستمر في هذا المنصب عاما وشهرين ثم عزل في شهر رجب (807هـ/1405م)، وأعيد للمرة الخامسة في شعبان (807هـ/1405م)، غير أنه عزل بعد ثلاثة أشهر من ذلك، وخلفه جمال الدين التونسي لمدة يومين فقط، وعين البساطي مكانه ثم عزل في شعبان (808هـ/1406م). وبعدها أعيد ابن خلدون وشغل هذا المنصب إلى غاية وفاته.<sup>(42)</sup>

فمات ابن خلدون قاضيا يوم الأربعاء لأربعة باقين من رمضان سنة (808هـ/1406م) عن عمر يناهز ستة و سبعون سنة دون أشهر و دفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر.<sup>(43)</sup>

### الهوامش:

<sup>(1)</sup> المقدمة، ج1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص30؛ لا بد من الإشارة إلى أن هناك شك في صحة الأصل العربي لهذه الأسرة وذلك بحكم أن كثيرا من العائلات سواء في المغرب أو الأندلس كانت حريصة على الانتساب إلى أصل عربي، وذلك لما كان يحظى به العرب من مكانة راقية لأنهم كانوا أهل الرئاسة والحكم في البلاد، ومن الأسباب التي دعمت هذا الشك موقف ابن خلدون من العرب أو نظرتهم إليهم، غير أننا إذا تمعنا جيدا في حديث ابن خلدون عن العرب نجده يعني بهذه الصفات البدو، رحاب عكاوي: ابن خلدون أشهر مؤرخ عرفه الإسلام، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1418هـ/1998م، ص10.

<sup>(2)</sup> الزلافة: من المعارك ذات الأثر البعيد في الحياة الإسلامية بالأندلس، وكانت لابن عباد ويوسف بن تاشفين ضد ملك الجلالقة، أستشهد فيها طائفة كبيرة من أسرة ابن خلدون، وكان الانتصار فيها للمسلمين، التعريف: المصدر السابق، ص8.

<sup>(3)</sup> ابن خلدون: المقدمة، ج1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص ص 36-37.

<sup>(4)</sup> رحلته غربا و شرقا، ص ص 10-14؛ يحيى ابن خلدون: شغل عدة مناصب منها الحجابة وذلك لمدة طويلة، أنتج أعمال أدبية تاريخية مثل كتاب لبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وقصيدته في السيف والعلم، وكانت له مراسلات سلطانية مع ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله، و وزيره ابن الخطيب مات يحيى ابن خلدون قتيلا على يد ولي العهد ابن تاشفين سنة 780هـ/1369م، أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب و الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2008م، ص195.

<sup>(5)</sup> المقدمة: ج1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص ص 29-30.

<sup>(6)</sup> عبد الرحمن ابن خلدون: شفاء السائل في تهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1417هـ/1996م، ص24.

- (7) أحمد بن المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ج6، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م، ص172.
- (8) تعريف الخلف برجال السلف، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007م، ص27.
- (9) سيفيتلانا باتيسيفيا: العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة: رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، تونس، 1978، ص62.
- (10) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ط1، مطبعة الاقتصاد، مصر، د.ت، ص26.
- (11) رحلته غربا و شرقا، ص ص 17-21.
- (12) أحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، تحقيق: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 1421هـ/200م، ص271.
- (13) العقلية: تسمى أيضا (العلوم الفلسفية) و (العلوم الحكمية). وتشمل المنطق و ما وراء الطبيعة، و العلوم الرياضية، و العلوم الطبيعية و الفلكية، و الموسيقى، المقدمة: ج1، تحقيق عبد الواحد وافي، ص39.
- (14) لسان الدين ابن الخطيب (ت776هـ): الإحاطة، ج 3، ص507: لا بد من الإشارة إلى أن ابن خلدون تعرض إلى كثير من الشتائم والتطاولات التي كانت في حقه وهذه الظاهرة عرفت عند كثير من العلماء المعاصرين له، إذا شعروا بشدة تفوقه عليهم عقلا وعلمًا، ومن بين أهم العلماء الذين هاجموا ابن خلدون نذكر السخاوي، محمد عبد الكريم وافي: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، ط 2، منشورات غارنيوس، بانغازي، 1998، ص 276.
- (15) محمد عابد الجابري: العصبية والدولة- معالم نظرة خلدونية في التاريخ الإسلامي-. ط6، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص 64-65.
- (16) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ص 15، 16، 20.
- (17) ولد عبد المهيم بسبته سنة 675هـ/1276م، وهو صاحب القلم الأعلى بالمغرب، إمام الحديث والعربية، كاتب السلطان أبي الحسن، وكان أبوه قاضيا، درس على يد الأستاذ أبي إسحاق الغافقي، وعدة مشايخ، وبرز في علوم الإسناد، وكثرة المشيخة، وكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، واستكتبه رئيس الأندلس الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرندي، وكتب عنه، وانظم إلى طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه، وعمل عند السلطان أبي الحسن، وسار معه إلى أفريقية لمرض أصابه، واشتغل في عدة مناصب بعدها. يراجع لسان الدين ابن الخطيب: أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تحقيق: محمد كمال شبانة، المغرب-الإمارات العربية المتحدة: منشورات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، 1977، ص ص 99-100؛ وابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ص 18، 24-41؛ وابن القاضي: جذوة الاقتباس، ص 444؛ والمقرئ: أزهار الرياض، ص 55؛
- (18) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 19، 31.

(19) المصدر نفسه، ص 17-18.

(20) محمد ابن إبراهيم العبدري التلمساني الشهير بالأبلي (681-757هـ/1282-1356م)، أصله من الأندلس من أبله، انتقلت عائلته إلى تلمسان، أين نشأ بها في كفالة جده القاضي، فمال إلى انتحال العلم، وبرزت فيه معالم النبوغ منذ صغره، فأتقن العلوم العقلية، وتتلذذ على عدد غير قليل من مشيخة عصره، فكان جده من أمه محمد بن غلبون هو أحد شيوخه، بالإضافة إلى خلوف المغيلي اليهودي، وموسى ابن الإمام، وأبو الحسن التنسي، ومحمد الهسكوري شيخه في التعاليم، أضيف إلى ذلك تلقيه المعقولات والتعاليم والحكمة (الإلهيات والطبيعات) على يد ابني الإمام ... فاستوعب فلسفة العقلانيين؛ أمثال: ابن رشد، وابن سينا، والفارابي، والرازي، وكان لذلك أثره في تفتيق ذهنه، وقد وصفه ابن خلدون بأنه "شيخ العلوم العقلية"، فقد كان وقع الأبلي عظيما في نفس ابن خلدون، إذ تعلم منه مبادئ الفلسفة والمنطق والرياضيات وعلم الأصول وسائر فروع الحكمة، ولازمه مدة ثلاث سنوات، تكون فيها تكوينا فلسفيا وعقلانيا فريدا. ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 21-22؛ وابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والورق، الرباط، 1973، ص 304؛ والتنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 1989، ص 411-416؛ وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: أحمد بن أبي شنب، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1908، ص 214-219.

(21) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 21، 23، 47، 48.

(22) الملفت للانتباه أنه هناك من شكك في إمكانيات إطلاع ابن خلدون على كل الكتب التي ذكرها و من الذين شككوا نذكر طه حسين الذي يدعم شكه هذا بذكره أن ابن خلدون ذكر استحالة الحصول على نسخة من كتاب الأغاني الشهير، طه حسين: المرجع السابق، ص 11-12؛ و برأينا لا نستبعد إمكانية أن يكون ابن خلدون قد اطلع على كتاب الأغاني وحفظ منه بعض أشعاره، لاسيما أن الكتاب كان متوفرا في مكتبة الناصر الأموي بالأندلس، فضلا على أن هذا الكتاب كان متداولاً بين العلماء، بالإضافة إلى أن ابن خلدون لم يكن عاجزا عن الحصول على هذه النسخة بحكم موقعه ومكانة أسرته، رحلته غربا وشرقا، ص 18.

(23) رحلته غربا وشرقا، ص 16-19.

(24) حادث الطاعون الذي انتشر سنة 749هـ/1349م في معظم أنحاء العالم شرقيه و غربيه، فتضررت البلاد الإسلامية من سمرقند إلى المغرب و عصف كذلك بإيطاليا و معظم البلاد الأوروبية و الأندلس، و يسميه ابن خلدون بالطاعون الجارف، فقد أهلك الكثيرين، حسين عاصي: ابن خلدون مؤرخا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1991م، ص 19.

(25) رحلته غربا وشرقا، ص 57-58.

(26) أبو عنان: هو فارس المكنى بأبي عنان بن أبي الحسن، المريني كان يلقب بالمتوكل، ثار على أبيه وملك المغرب الأقصى و بجاية و قسنطينة، و تلمسان و تونس و توفي في سنة 759هـ، بوع له بولاية

العهد في ربيع الثاني (752هـ/1351م) اتصف بالحزم والذكاء والشجاعة والدهاء في سياسته الداخلية. توفي عام (759هـ/1158م)، علي الجزنائي: زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1991م، ص 380: ابن الحاج النميري (بعد 774هـ): فيض العباب- وإفاضة قدح الآداب في الحركة السعودية إلى قسنطينة والزاب-، تحقيق: محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامية، بيروت، 1990م، ص 88.

(27) رحلته غربا و شرقا، ص ص 68-75.

(28) قلعة ابن سلامة: أو بني سلامة وتسمى قلعة تاوغزوت، تقع في مقاطعة تيارت من بلاد الجزائر وتبعد بنحو 6 كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة فرندة. كما تبعد عن مدينة تيارت في الجنوب الغربي أيضا بتسعة مراحل، أما سلامة الذي تنسب إليه أو إلى أبيه فهو (سلامة بن علي بن نصر بن سلطان رئيس بني يدلتن من بطون توجين سكن تاوغزوت و اختط بها القلعة فنسبت له و إلى بنيه)، و تحتوي هذه القلعة عل مغارة كبيرة و يعتقد أن ابن خلدون ألف مقدمته فيها، رحلته غربا و شرقا، ص 236: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة و النشر و التوزيع، جدة، دت، ص 223.

(29) رحلته غربا و شرقا، ص ص 236.

(30) نفسه، ص ص 253-254.

(31) ومن العوامل التي دفعت ابن خلدون إلى اختيار القاهرة مقرا لإقامته كونها عاصمة الفكر و الثقافة و من أجمل عواصم الشرق عمارة و هي مقر الخلافة الإسلامية و موطن الأزهر الشريف و أكثر الدول الإسلامية ازدهارا و أشهرها تجارة و صناعة ضف إلى ذلك أنها قلعة الجهاد التي رد جيشها عن أرض العرب و الإسلام الصليبيين و التتار، مصطفى نبيل: سيرة ذاتية عربية من ابن سينا حتى علي باشا مبارك، دار الهلال، الإسكندرية، 1992م، ص 164.

(32) رحلته غربا و شرقا، ص ص 204-255.

(33) القمحية: أنشأها صلاح الدين الأيوبي و هي مدرسة للفقهاء المالكية و رتب فيها صلاح الدين الأيوبي مدرستين و جعل لها أوقاف كانت منها ضيعة بالفيوم تنتج قمحا و كان مدرسوها يتقاسمون و لذلك سارة تعرف بالمدرسة القمحية، رحلته غربا و شرقا، ص ص 255-260.

(34) كان منصب قاضي القضاة المالكية في مصر أحد المناصب الأربعة بعدد المذاهب يسمى صاحب كل منصب منها قاضي القضاة فكان هناك قاضي قضاة الحنفيين و الحنابلة و الشافعية بالإضافة إلى المالكية و يعتبر صاحب هذا المنصب الأخير عميد الأربعة جميعا لعموم ولايته على جميع بلاد مصر، المقدمة، ج 1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص ص 84-86.

(35) في ظل هذه الظروف أصيب ابن خلدون بفاجعة كبيرة و هي هلاك زوجته و أولاده و أمواله بينما هم في طريقهم إليه (غرقا).

(36) عهد في بنائها إلى الأمير جهركس الخليلي شرع في بنائها سنة (786هـ/1384م) و أنهاها سنة (788هـ/1386م)، المقدمة، ج 1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص 90.

(37) رحلته غربا و شرقا، ص ص 266-285.



- (38) تقع بجوار جامع أحمد بن طولون وهي تنسب إلى بانها سيف الدين سرغتمش الناصري أمير رأس نوبا المتوفي سجيناً في الإسكندرية سنة (759هـ)، المقدمة، ج1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص91؛ محمد طه الحاجري: ابن خلدون بين حياة العلم و دنيا السياسة، دار النهضة العربية، بيروت، دت، ص ص 206-208.
- (39) شيدها بيبرس داخل باب النصر من أعظم المدارس و أحفلها و أكثرها ريعاً و أوقافاً و عين مشيختها و نظرها لما يستعد له بشروطه في وفقه فكان رزق المشيخة واسعاً لمن يتولاه، و الخوانق في أصل وضعها والصفة الغالبة عليها بيوتا للصوفية يخلصون فيها للعبادة و ينقطعون فيها عن علائق الدنيا و يتفرغون فيها من هموم العيش، رحلته غرباً و شرقاً، ص 332.
- (40) رحلته غرباً و شرقاً، ص 362.
- (41) المقدمة، ج1، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ص 101.
- (42) جلال الدين السيوطي الشافعي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، دت، ص 92.
- (43) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص 516: شفاء السائل و تهذيب المسائل، ص 26.

